تفسير سورةُ النور
من آية (22) إلى آية (26)
اللقاء الخامس

المعنى الإجمالي من آية (15) إلى آية (21):

ولولا فَضلُ الله عليكم ورحمتُه بكم -بإمهالِكم للتَّوبةِ، وعدَمِ تعجيلِ العقوبةِ لكم، وعَفوِه عنكم- لنزَلَ بكم بسبَبِ خَوضِكم في حديثِ الإفكِ عذابٌ عظيمٌ حينَ تناقلتُم بيْنكم هذا الحديثَ السيِّئَ دون تحرُّجٍ أو تمهُّلٍ، وتفَوَّهتُم بكلامٍ لا عِلمَ لكم بحقيقتِه، ولا دليلَ معكم على صِدقِه، وتظنُّونَ خَوضَكم الباطِلَ هذا شيئًا يسيرًا سهلًا، وهو -عندَ اللهِ- ذنْبٌ عظيمٌ!

وهلَّا قلتُم وقتَ سماعِكم هذا الإفكَ: ما يَصِحُّ لنا أن نتكلَّم بهذا الباطِلِ، نُنزِّهُك -يا ربَّنا- ونتعجَّبُ مِن شناعةِ ما سَمِعْناه، ونبرَأُ إليك مِن هذا الافتراءِ العظيمِ! يُذَكِّرُكم اللهُ ويُحَذِّرُكم مِن العودةِ لهذا الإثمِ العظيمِ إن كنتُم مؤمنينَ بالله حقًّا، ويوضِّحُ اللهُ لكم آياتِه، واللهُ عليمٌ بأحوالِ خَلقِه، حكيمٌ فيما يأمُرُ به ويَنهى عنه.

يقولُ الله تعالى: إنَّ الذين يُحبُّون أنْ يَظهرَ الزِّنا، ويَشيعَ خبرُه، والقذفُ به في المؤمنين؛ لهم عذابٌ مُؤْلِمٌ في الدُّنيا والآخِرةِ، واللهُ يعلَمُ، وأنتم لا تعلمون إلَّا ما علَّمكم سبحانه وتعالى، ولولا فَضلُ اللهِ على عبادِه ورحمتُه بهم، وأنَّه بهم رؤوفٌ رحيمٌ؛ لعجَّل لهم العُقوبةَ.

يا أيُّها الذين آمَنوا لا تتَّبِعوا طرقَ الشَّيطانِ، ولا تَسلُكوا مسالِكَه، ومَن يَسلُكْ طُرُقَ الشيطانِ فإنَّه يأمُرُه بقبيحِ الأفعالِ ومُنكَراتِها، ولولا فَضلُ الله ورحمتُه بكم -أيُّها المؤمنونَ- ما تطهَّرَ أحدٌ منكم مِن الأوزارِ، ولكِنَّ اللهَ برحمتِه وفَضلِه يطهِّرُ من يشاءُ، واللهُ سميعٌ لأقوالِكم، عليمٌ بأعمالِكم ونيَّاتِكم.

(أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ)

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿22﴾

سَبَبُ النُّزولِ: عن أمِّ المؤمنين عائِشةَ بنتِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ -رَضِيَ الله عنهما- في قِصَّةِ الإفكِ، قالت: ((فأنزل اللهُ: إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ [النور: 11] العشرَ الآياتِ كُلَّها في براءتي، فقال أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ -وكان يُنفِقُ على مِسْطَحٍ لِقَرابتِه منه-: واللهِ لا أُنفِقُ على مِسطَحٍ شَيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشةَ؛ فأنزل اللهُ: وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [النور: 22]. قال أبو بكرٍ:

بلى واللهِ، إنِّي لَأُحِبُّ أن يَغفِرَ اللهُ لي، فرجَعَ إلى مِسْطَحٍ النَّفقةَ التي كان يُنفِقُ عليه، وقال: واللهِ لا أنزِعُها عنه أبدًا)) رواه البخاري.

(وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أي: ولا يَحلِفْ باللهِ أصحابُ الفَضلِ والغِنى وذَوو السَّعةِ في الرِّزقِ، على ألَّا يُنفِقوا ويُعطوا الصَّدَقاتِ أقارِبَهم والمساكينَ والمهاجرينَ في سَبيلِ اللهِ. موسوعة التفسير

وقال ابن كثير: (أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ أي: الطَّوْلِ والصدقةِ والإحسانِ).

فيه النَّهيُ عن الحَلِفِ ألَّا يفعَلَ خَيرًا، وأنَّ مَن حلَف على يمينٍ فرأى غيرَها خيرًا منها، فيُستحَبُّ له الحِنثُ، وفيه دليلٌ على أنَّ اليمينَ إذا وقعَتْ على ما لا قُربةَ فيه إلى اللهِ، فالطَّاعةُ تَرْكُها وتَركُ المضِيِّ عليها.

قال ابن عثيمين: أنَّ الإساءةَ مِن الشَّخصِ لا تُوجِبُ إسقاطَ حُقوقِه، فإذا أساء فليس معنى ذلك أنَّنا نُسيءُ إليه بتَركِ ما يجبُ علينا؛ فإساءتُه تكونُ على نفْسِه، ونحن علينا ما يجِبُ.

(وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا) أي: ولْيَعْفُ ذَوو الفَضلِ والسَّعةِ منكم عن أولئك المحتاجينَ الذين خاضُوا في الإفكِ، ويتجاوَزوا عنهم، ويُعرِضوا عن ذَنبِهم، ويَترُكوا عُقوبتَهم؛ فلا يَمْنعوهم مِن الصَّدقاتِ والنَّفَقاتِ التي كانوا يُقدِّمونَها إليهم مِن قبْلُ. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين:(العفو: تَرْكُ المؤاخَذةِ على الذنْبِ، والصفحُ: الإعراضُ عنه... فالصفحُ معناهُ: الإعراضُ عن هذا بالكلِّيَّةِ وكأنَّه لم يَكُنْ؛ فعلى هذا يَكونُ بيْنهما فرقٌ؛ فالصفحُ أكمَلُ إذا اقترَنَ بالعَفْوِ).

العفو: ترك المعاقبة على الذنب، والصفح: الإعراض عن الذنب ونسيانه مطلقاً وكأن الجاني لم يصدر منه شيء.

(أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ) أي: ألا تُحِبُّونَ أن يَستُرَ اللهُ ذُنوبَكم، ويَتجاوزَ عن مؤاخَذتِكم بها؟ إذَنْ فاعفُوا واصفَحوا عمَّن أساؤوا إليكم؛ لِيَغفِرَ اللهُ لكم. موسوعة التفسير

من السهل أن تواصلي الإحسان لمن أحبك وصدقك، وبادل الإحسان بالامتنان والشكر والعرفان، لكن الابتلاء كل البلاء أن تفعلي ذلك مع من قابل إحسانك بالخذلان، والنكران والجحود، والأعظم، عندما يطعنك ويؤلمك، ويكون سبب قهرك، هنا لا يستمر بالبذل والعطاء، إلا موفق سدده الله، وأعانه على نفسه، وأطفأ نار قهره، وطيب آلام جرحه.

وهنا نقف وقفة مع النفوس الزكية، التي تطهرت بنور الإيمان، أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – الذي مسه حديث الإفك في أعماق قلبه، والذي احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه؛ فما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو: ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟ حتى يرتفع على الآلام، ويرتفع على مشاعر الإنسان، فإذا هو يلبي داعي الله في طمأنينة وصدق يقول: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، ويعيد إلى مسطح

النفقة التي كان ينفق عليه، ويحلف: والله لا أنزعها منه أبدا؛ ذلك في مقابل ما حلف، والله لا أنفعه بنافعة أبدا.

قال القصاب: دليلٌ على أنَّ مُواصلةَ مَن قطَع، والإحسانَ إلى مَن أساء: هو خُلُقٌ مَرْضِيٌّ، ومندوبٌ إليه المرءُ.

(وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) أي: واللهُ ساترٌ لذُنوبِ التَّائبينَ الطَّائعينَ، ومُتجاوِزٌ عن مؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بعبادِه المؤمنينَ الصَّالحينَ. موسوعة التفسير

❁مبالغ في المغفرة والرحمة مع كمال قدرته على العقاب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾﴿23﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: أنَّه لَمَّا ختَمَ الآيةَ السَّابقةَ بالوَصفينِ غَفُورٌ رَحِيمٌ بعْدَ الأمرِ بالعَفوِ، ربَّما جرَّأ على مِثلِ هذه الإساءةِ، فوصَلَ به مُرَهِّبًا من الوقوعِ في مثلِ ذلك قَولَه مُعَمِّمًا للحُكمِ

(إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) أي: إنَّ الذين يَقذِفونَ بالزِّنا العَفيفاتِ الغافلاتِ عن الفاحِشةِ المؤمِناتِ، ولم يتوبوا مِنْ قذْفِهِنَّ؛ أبعَدَهم اللهُ مِن رحمتِه في الدُّنيا والآخِرةِ. موسوعة التفسير

(وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) أي: ولهم عذابٌ عظيمٌ في جهنَّمَ، إنْ لم يتوبوا قبْلَ وفاتِهم مِن قَذفِ المحصَناتِ الغافلاتِ المؤمِناتِ. موسوعة التفسير

قال السعدي:

(الْمُحْصَنَاتِ) أي: العفائف عن الفجور.

(الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ) فالمراد هنا: أنهن حسنات النية، سالمات الصدر، ولا يخطر ببالهن الفحش، وهذه الصفة محمودة، وكانت عائشة كذلك.

(لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ) واللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير، وأكد اللعنة بأنها متواصلة عليهم في الدارين.

(وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) وهذا زيادةٌ على اللعنةِ، أبعَدهم عن رحمتِه، وأحلَّ بهم شدةَ نقمتِه.

❁لكن هذا اللعن قد يرفع بسبب توبة قبل الممات، أو بمصائب مكفرة، أو بأعمال تكفر ذلك.

قال ابن حجر: تضمَّنت هذه الآيةُ بيانَ أنَّ القَذْفَ مِن الكبائرِ، وهذا بِناءً على أنَّ كلَّ ما تُوُعِّدَ عليه باللَّعْنِ أو العذابِ، أو شُرِعَ فيه حَدٌّ؛ فهو كبيرةٌ، وهو المعتمَدُ.

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اجتَنِبوا السَّبْعَ الموبِقاتِ، قيل: يا رَسولَ اللهِ، وما هُنَّ؟ قال: الشِّركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقَتلُ النَّفسِ التي حرَّم اللهُ إلَّا بالحَقِّ، وأكلُ مالِ اليتيمِ، وأكلُ الرِّبا، والتولِّي يومَ الزَّحفِ، وقَذفُ المحصَناتِ الغافلاتِ المؤمِناتِ)). رواه مسلم

قال البقاعي: هذا الحُكمُ وإن كان عامًّا فهو لأجلِ الصِّدِّيقةِ بالذَّاتِ وبالقَصدِ الأوَّلِ، وفيما فيه مِن التَّشديدِ الذي قَلَّ أن يوجَدَ مِثلُه في القرآنِ مِن الإعلامِ بعَليِّ قَدرِها، وجَليِّ أمرِها، في عَظيمِ فَخرِها- ما يَجِلُّ عن الوَصفِ.

قال الشنقيطي: (وَصْفُه تعالى للمُحصَناتِ في هذه الآيةِ بكَونِهنَّ غافِلاتٍ: ثناءٌ عليهنَّ بأنَّهنَّ سليماتُ الصُّدورِ، نقيَّاتُ القُلوبِ، لا تَخطُرُ الرِّيبةُ في قُلوبِهنَّ؛ لحُسنِ سَرائِرِهنَّ، ليس فيهنَّ دَهاءٌ ولا مَكرٌ؛ لأنَّهنَّ لم يُجَرِّبْنَ الأمرَ فلا يَفْطُنَّ لِمَا تَفطُنُ له المجَرِّباتُ ذواتُ المكرِ والدَّهاءِ، وهذا النَّوعُ مِن سلامةِ الصُّدورِ وصَفائِها مِنَ الرِّيبةِ: مِن أحسَنِ الثَّناءِ).

وقال ابن عاشور: (اللعنُ في الدنيا: التَّفسيقُ، وسَلبُ أهليَّةِ الشهادة، واستيحاشُ المؤمنين منهم، وحَدُّ القذفِ؛ واللَّعنُ في الآخرة: الإبعادُ من رحمةِ الله).

قال الزجَّاج: (لم يقُلْ هاهنا: والمؤمنينَ؛ استِغناءً بأنَّه إذا رمى المؤمنةَ فلا بدَّ أن يرميَ معها مؤمنًا، فاستَغْنى عن ذِكرِ المؤمنينَ؛ لأنَّه قد جرى ذِكرُ المؤمنينَ والمؤمناتِ).

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾﴿24﴾

(يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أي: لهم عذابٌ عظيمٌ يومَ القيامةِ حينَ تَشهَدُ عليهم ألسِنتُهم وأيديهم وأرجُلُهم، فتنطِقُ بغيرِ اختيارِهم بما كانوا يكتَسِبونَه في الدُّنيا مِن الذُّنوبِ، بأقوالِهم وأفعالِهم، كالقَذفِ وغَيرِه. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: تمامُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيثُ إنَّ هذه الأعضاءَ تنطِقُ مع أنَّ النُّطقَ في العادةِ باللِّسانِ، لكنْ يكونُ النُّطقُ بكلِّ شَيءٍ إذا أراد اللهُ سُبحانَه وتعالى؛ ولهذا تقولُ الجلودُ: (أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) [فصلت: 21].

يوم القيامة يوم عظيم مشهود، فيه كثير من المواقف العظيمة الجليلة التي تشيب لهولها الولدان، وتبكي من شدتها العينان، وترتجف من عظمتها المشاعر والوجدان، مشاهد مؤثرة، وأحوال مبكية، ومواقف شديدة، إنها لحظة تقهر النفوس، وترجف القلوب، وتوقف الأنفاس وتكتمها، إنها لحظة شهادة الجوارح، أتدرون ما شهادة الجوارح؟ إنها شهادة جوارحنا وأعضائنا، يوم تشهد علينا في ذلك اليوم العظيم، عندما يسألنا الله عن كل صغيرة وكبيرة، وجليلة وحقيرة، فتشهد جوارحنا على معاصينا، وتعترف أعضاؤنا بما عملته من معاصي وآثام. يقول الله -سبحانه وتعالى- مصوراً ذلك المشهد الرهيب والموقف الصعب: قال تعالى: (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) [يس:65]، في ذلك اليوم يخرس الله -سبحانه وتعالى- أفواههم فلا يقدرون على الكلام، ولا يستطيعون النطق، ولا يقدرون على المجادلة والمناقشة التي لم تعد تنفعهم ولا تغني عنهم شيئاً، فإذا خرست ألسنتهم وتجمدت أفواههم ولم تنطق؛ شهدت عليهم جوارحهم، فتتكلم أيديهم بما اقترفته من

أخذ الحرام، وسرقة أموال الناس، وظلم الآخرين والتعدي عليهم بالضرب والفعل، وتشهد أرجلهم بما فعلته من آثام وموبقات مشوا إليها بأرجلهم، ومارسوها بتلك الأرجل التي تتجه إلى الحرام وتمشي إليه.

ويشهد اللسان بما قال من كذب وغيبة ونميمة وزور وبهتان وافتراء، فيقول: قلت كذا وكذا، ونطقت بكذا وكذا، وشهدت زوراً وبهتاناً على كذا وكذا، (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كنَّا عندَ رسولِ اللهِ -ﷺ- فضَحِكَ، فقال: هل تدرونَ ممَّ أضحَكُ؟ قلنا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: مِن مخاطبةِ العبدِ ربَّه؛ يقولُ: يا ربِّ، ألم تُجِرْني من الظُّلمِ؟ يقولُ: بلى، فيقولُ: فإنِّي لا أُجيزُ على نفْسي إلَّا شاهِدًا مِنِّي، فيقولُ: كفَى بنَفْسِك اليومَ عليك شَهيدًا، وبالكِرامِ الكاتبينَ شُهودًا! فيُختَمُ على فِيهِ، فيُقالُ لأركانِه "لجوارحِه": انطِقي، فتَنطِقُ بأعمالِه، ثم يُخلَّى بيْنَه وبيْنَ الكلامِ، فيقولُ: بُعْدًا لكُنَّ وسُحْقًا! فعنكُنَّ كنتُ أُناضِلُ "أُدافِعُ وأُجادِلُ") رواه مسلم.

فإذا علمنا وأيقنا أن جوارحنا ستكون فاضحة لنا وشاهدة علينا يوم القيامة؛ فما علينا إلا أن نتقي الله في أنفسنا، ونحتاط لها، وننتبه كل الانتباه ونحذر كل الحذر من هذه الشهادة العظيمة التي تأتي من داخلنا، ومن نفس أعضائنا وجوارحنا.

علينا أن نحاول بكل ما أوتينا من استطاعة وقدرة أن نجعل شهادة الأعضاء لصالحنا لا ضدنا، ولنا لا علينا، ولن يكون هذا إلا بتحقيق تقوى الله -سبحانه وتعالى- ومراقبته في كل حركاتنا وسكناتنا.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ ﴿25﴾

(يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ) أي: يومَئذٍ يوفِّيهم اللهُ حِسابَهم بالعَدلِ، ويُجازيهم على أعمالِهم بلا ظُلمٍ. موسوعة التفسير

والدين يطلق على معنيين: تارة يراد به الجزاء، كما في قوله تعالى: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) أي يوم الجزاء. وتارة يراد به العمل، كما في قوله تعالى: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ).

قال النحاس: (مجازاةُ الله جلَّ وعَزَّ للكافِرِ والمسيءِ: بالحَقِّ والعدلِ، ومجازاتُه للمحسنينَ: بالفضلِ والإحسانِ).

كما قال تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) [الأنبياء: 47].

وقال تعالى: (وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) [الكهف:49]

(وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ) أي: وينكَشِفُ لهم حينَها أنَّ اللهَ هو الحَقُّ الموجودُ الثَّابتُ في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه، الظَّاهِرُ الذي لا شَكَّ فيه، والهادي مَن يشاءُ، المظهِرُ للحقائِقِ في الآخرةِ. موسوعة التفسير

قال السعدي: (أوصافُه العظيمةُ حقٌّ، وأفعالُه هي الحقُّ، وعبادتُه هي الحقُّ، ولقاؤُه حقٌّ، ووعدُه ووعيدُه، وحُكمُه الدينيُّ والجزائيُّ حقٌّ، ورُسلُه حقٌّ).

قال الزمخشري: لقد برَّأ اللهُ تعالى أربعةً بأربعةٍ: برَّأ يوسُفَ بلِسانِ الشَّاهِدِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا [يوسف: 26]، وبرَّأ موسى مِن قَولِ اليهودِ فيه بالحَجَرِ الذي ذهَبَ بثَوبِه، وبرَّأ مريمَ بإنطاقِ ولَدِها حين نادى مِن حِجْرِها: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ [مريم: 30]، وبرَّأ عائشةَ بهذه الآياتِ العِظامِ في كتابِه المعجِزِ المتلُوِّ على وجهِ الدَّهرِ مِثْلَ هذه التبرئةِ بهذه المبالغاتِ، فانظُرْ: كَمْ بيْنها وبيْن تبرئةِ أولئك؟! وما ذاك إلَّا لإظهارِ علُوِّ مَنزلةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتنبيهِ على إنافةِ محلِّ سَيِّدِ ولدِ آدمَ، وخِيرةِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، وحُجَّةِ الله على العالَمينَ، ومَن أراد أن يتحقَّق عظَمةَ شأنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتقَدُّمَ قدَمِه، وإحرازَه لقصَبِ السَّبْقِ دونَ كُلِّ سابقٍ؛ فليتلَقَّ ذلك من آياتِ الإفكِ، وليتأمَّلْ كيف غَضِبَ اللهُ في حُرمتِه، وكيف بالغَ في نفيِ التُّهمةِ عن حِجابِه.

هذا مِنَ التَّغليظِ الشَّديدِ الَّذي أُوعِدَ به العُصاةُ؛ ولم يُغلِّظِ اللهُ تعالى في شَيءٍ تَغليظَه في إفكِ عائشةَ رضوانُ اللهِ عليها، ولا أنزَلَ مِن الآياتِ القوارعِ، المشحونةِ بالوعيدِ الشَّديدِ، والعِتابِ البليغِ، والزَّجرِ العنيفِ، واستِعظامِ ما رُكِبَ مِن ذلك، واستِفظاعِ ما أُقْدِمَ عليه، ما أنزَلَ فيه على طُرُقٍ مُختلفةٍ، وأساليبَ مُفْتَنَّةٍ، كلُّ واحدٍ منها كافٍ في بابِه، ولو لم يُنزِلْ إلَّا هذه الثلاثَ لَكفَى بها؛ حيث جعَلَ القذفةَ ملْعونينَ في الدَّارينِ جميعًا، وتوعَّدَهم بالعذابِ العظيمِ في الآخرةِ، وبأنَّ ألْسنَتَهم وأيدِيَهم وأرجُلَهم تَشهَدُ عليهم بما أفَكُوا وبَهَتوا، وأنَّه يُوفِّيهم جزاءَهم الحقَّ الواجبَ الَّذي هم أهْلُه، حتَّى يَعْلَموا عندَ ذلك أنَّ اللهَ هو الحقُّ المبينُ؛ فأوجَزَ في ذلك وأشبَعَ، وفصَّلَ وأجمَلَ، وأكَّدَ وكرَّرَ، وجاء بما لم يقَعْ في وَعيدِ المشركينَ عبدةِ الأوثانِ إلَّا ما هو دونَه في الفظاعةِ، وما ذاك إلَّا لأمْرٍ. الدرر السنية

ويختم الحديث عن حادث الإفك ببيان عدل الله في اختياره الذي ركبه في الفطرة، وحققه في واقع الناس، وهو أن تلتئم النفس الخبيثة بالنفس الخبيثة، وأن تمتزج النفس الطيبة بالنفس الطيبة.

وعلى هذا تقوم العلاقات بين الأزواج، وما كان يمكن أن تكون عائشة -رضي الله عنها- كما رموها، وهي مقسومة لأطيب نفس على ظهر هذه الأرض ولقد أحبت نفس رسول الله -ﷺ- عائشة حباً عظيماً، فما كان يمكن أن يحبها الله لنبيه المعصوم، إن لم تكن طاهرة تستحق هذا الحب العظيم.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾﴿26﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال المراغي: بعد أن برَّأ سُبحانَه عائشةَ رضي اللهُ عنها مِمَّا رُمِيَت به مِن الإفكِ، ثمَّ ذكَرَ أنَّ راميَ المحصَناتِ الغافلاتِ مَطرودٌ مِن رَحمةِ الله- أردف ذلك دليلًا يَنفي الرِّيبةَ عن عائشةَ بأجلى وضوحٍ؛ ذاك أنَّ السُّنةَ الجاريةَ بيْن الخَلقِ مَبنيَّةٌ على مُشاكلةِ الأخلاقِ والصِّفاتِ بيْن

الزَّوجَينِ؛ فالطيّباتُ للطيّبينَ، والخبيثاتُ للخبيثينَ؛ ورسولُ اللهِ أطيبُ الطَّيّبينَ، فيَجِبُ كونُ الصِّدّيقةِ مِن أطيبِ الطَّيّباتِ على مقتضى المنطقِ السَّليمِ والعادةِ الشَّائِعةِ بين الخَلقِ

(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ) أي: الخَبيثاتُ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ والنِّساءِ وغيرِ ذلك لائقةٌ ومُناسِبةٌ للخَبيثينَ، وكذلك الخَبيثونَ أهلٌ للخَبيثاتِ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ والنِّساءِ وغيرِ ذلك. موسوعة التفسير

(وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ) أي: والطَّيّباتُ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ والنِّساءِ وغيرِ ذلك لائقةٌ ومُناسِبةٌ للطَّيِّبينَ، وكذلك الطيّبون أهلٌ للطَّيّباتِ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ والنِّساءِ وغيرِ ذلك. موسوعة التفسير

قال البقاعي: قضى اللهُ العليمُ الخبيرُ أنَّ كُلَّ شَكلٍ ينضَمُّ إلى شَكلِه، ويفعَلُ أفعالَ مِثلِه.

قال السعدي: فيه أنَّ كُلَّ خَبيثٍ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ، والكَلِماتِ والأفعالِ: مُناسِبٌ للخبيثِ، ومُوافِقٌ له، ومُقتَرِنٌ به، ومشاكِلٌ له؛ وكُلَّ طيِّبٍ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ، والكَلِماتِ والأفعالِ: مُناسِبٌ للطيِّبِ، وموافِقٌ له، ومُقتَرِنٌ به، ومُشاكِلٌ له.

(أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ) أي: أولئك الطَّيّبون والطَّيّباتُ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ بُعَداءُ ومنزَّهونَ مِن الخُبْثِ الذي يَنسُبُه إليهم أهلُ الإفكِ. موسوعة التفسير

قال ابنُ جرير: (وقَولُه: أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ يقولُ: الطَّيّبونُ مِنَ النَّاسِ مُبَرَّؤونَ مِن خَبيثاتِ القَولِ، إنْ قالوها فإنَّ اللهَ يَصفَحُ لهم عنها، ويَغفِرُها لهم، وإنْ قِيلَت فيهم ضَرَّت قائِلَها ولم تَضُرَّهم).

(لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) أي: لهؤلاءِ الطيّبين مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ، في الآخرةِ، مَغفِرةٌ من اللهِ لذُنوبِهم، ورِزقٌ حسَنٌ في جنَّاتِ النَّعيمِ. موسوعة التفسير

وقال ابن عثيمين: (أي: هؤلاء لهم مَغفِرةٌ على ذنوبِهم، ورِزقٌ كريمٌ على طاعاتِهم؛ فإنَّ الذنْبَ يناسِبُه المغفرةُ، والأعمالَ الصَّالحةَ يناسِبُها الرِّزقُ الكريمُ؛ لأنَّ مَن فعَلَ حَسَنةً يُجزى بعشرِ حَسَناتٍ إلى سَبعِ مئةِ ضِعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، فنَفْهَمُ مِن هذا أنَّ هؤلاء الذين قيل عليهم ما قيل قد حصَلَ لهم تكفيرُ سَيِّئاتٍ ومغفرةُ ذُنوبٍ، وكذلك رِفعةُ دَرَجاتٍ... وهنا قال عزَّ وجَلَّ: لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ فهؤلاء أُصيبوا مُصيبةً عَظيمةً، ولا شَكَّ أنَّهم صبَروا حتى فرَّج الله عنهم هذه الغُمَّةَ، فكان جزاءَ ما أُصيبوا به في هذه القضيَّةِ أن حصَلَت لهم المغفرةُ، وفي مقابلةِ الصبرِ حصَل لهم الرِّزقُ الكريمُ).

قال السعدي: والأنبياءُ -خصوصًا أُولي العَزمِ منهم، خصوصًا سَيِّدَهم محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الذي هو أفضَلُ الطيّبينَ مِن الخَلقِ على الإطلاقِ- لا يناسِبُهم إلَّا كُلُّ طَيِّبٍ مِن النِّساءِ؛ فالقَدحُ في عائشةَ رَضِيَ الله عنها بهذا الأمرِ قدْحٌ في النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو المقصودُ بهذا الإفكِ، مِن قَصدِ المنافِقين، فمُجَرَّدُ كَونِها زوجةً للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يُعلِمُ أنَّها لا تَكونُ إلَّا طيِّبةً طاهِرةً مِن هذا الأمرِ القَبيحِ. فكيف وهي هي؛ صِدّيقةُ النِّساءِ، وأفضَلُهنَّ، وأعلَمُهنَّ، وأطيبُهنَّ، حَبيبةُ رَسولِ رَبِّ

العالمينَ، التي لم يَنزِل الوحيُ عليه وهو في لحافِ زَوجةٍ مِن زَوجاتِه غَيرِها؟! ثمَّ صرَّح بذلك، بحيثُ لا يُبقي لمبطِلٍ مَقالًا، ولا لشَاكٍّ وشُبهةٍ مَجالًا، فقال: أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ، والإشارةُ إلى عائشةَ رَضِيَ الله عنها أصلًا، وللمُؤمِناتِ المحصَناتِ الغافلاتِ تَبَعًا.

قال الشنقيطي: الغالبُ الْتِئامُ الطَّيِّبةِ مع الطَّيِّبِ، والخَبيثةِ مع الخَبيثِ، لكن قد يَخْرِمُ اللهُ هذه القاعِدةَ لحِكَمٍ عَظيمةٍ، فيَضرِبُها أمثالًا للنَّاسِ، كما ضَرَبَ لهم بامرأتَيْ نوحٍ ولوطٍ، وامرأةِ فِرعونَ، وكما ضَرَبَ مثلًا لابنِ نوحٍ معه، وأبِي إبراهيمَ مع إبراهيمَ. والحكمةُ في ذلك: التفكُّرُ والاتِّعاظُ، وعدَمُ ركونِ الإنسانِ على قريبِه التقيِّ؛ قال تعالى: وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ [العنكبوت: 43]، وقال تعالى: وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [الحشر: 21]، فإذا عُلِمَ أنَّ أعظمَ مُداخلةٍ بيْن النَّاسِ هي الزوجيَّةُ، ومع ذلك فَصِلَةُ امرأتَيْ نوحٍ ولوطٍ بهما -وهما نبيَّانِ- لم تنفعْهما، كما قال تعالى: فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ [التحريم: 10]، وقال تعالى: لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا [النساء: 123]. إذا عَلِمَ الإنسانُ ذلك وأنَّ قرابةَ الصَّالحِ لا تنفعُ العاصيَ، كان ذلك باعثًا على العمَلِ، والاتِّصافِ بالصَّلاحِ، والمعروفُ أنَّ اللهَ تعالى نهى عن مُقاربةِ أهلِ السُّوءِ، والاختلاطِ بهم، وقال فيمَن يجالِسُهم إنَّهم يكونون مِثلَهم، كما قال تعالى: وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا [النساء: 140]، ولكنَّ الصالحِينَ قد يَلجَؤون إلى مُخالطةِ الفاسدِين، فلا يَضُرُّهم ذلك في حُدودِ الضَّرورةِ الملجِئةِ.

قال ابن عثيمين: دَليلٌ على أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُبَرِّئُ أهلَ الرَّجُلِ الطيِّبِ العفيفِ مِن الخُبثِ؛ لأنَّ الطيِّباتِ للطَّيِّبينَ، والطيِّبينَ للطيِّباتِ، وهذا مِن حكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ: أنَّ الإنسانَ كلَّما كان طيِّبًا نظيفًا وطاهِرًا، فإنَّ اللهَ سُبحانه وتعالى يُهيِّئُ له أهلًا بهذه المثابةِ؛ جزاءً وِفاقًا، والأمرُ كذلك بالعَكسِ فيما لو كان خبيثًا، ولا سيَّما فيما يتعلَّقُ بالعِفَّةِ، وهذا هو الغالِبُ في الواقِعِ: أنَّ المرءَ ذا الخُلُقِ الخَبيثِ يكونُ أهلُه كذلك؛ لأنَّه لم يَحْمِ نَفْسَه حتى يحميَه اللهُ عزَّ وجَلَّ.

الطِّيِّبُ كلمات جميلة، ومعانٍ محببة، تستهوي النفوس الطيبة، وتعجب العقول الزكية؛ فلا أجمل وقعًا، ولا أحسن لفظًا، ولا أمتع معنى من أن يقال رجل طيِّب، أو امرأة طيبة، أو كسب طيب، أو حياة طيبة، أو منزل طيب، أو كلمة طيبة، أو عاقبة طيبة.

ولسمو الطيب وزكائه ونقائه وصفائه وبهائه اختاره الله -تعالى- لنفسه؛ فهو -جل وعلا- طيب ولا يقبل إلا طيبًا، ويحب الطيِّب وَأهلَه، وجعل الطَّيِّب بحذافيره في الجنة، والخبث بحذافيره في النار.

وقد اختار -تعالى- من كل جنس من أجناس المخلوقات أطيبه، واختصه لنفسه، وارتضاه دون غيره، (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) [فاطر:10]، ويقول - ﷺ -: " أَيُّها النَّاسُ، إنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلَّا طَيِّبًا" صحيح مسلم.

وإن الطيِّب من خَلْقه تعالى لا يقبل إلا الطيب، ولا يناسبه إلا الطيب، ولا تسكن نفسه إلا إلى الطيب، ولا يحب من الأعمال إلا الطيب، ولا يأكل إلا الطيب، ولا يهوى من الأخلاق إلا أطيبها وأزكاها، وهو أبعد ما يكون من أخبثها، ولا يختار من المأكل والمشرب إلا أطيبه، ولا من النساء إلا أطيبهن، ولا من الأصحاب إلا أطيبهم، فروحه طيبة، وبدنه طيب، وخلقه طيب، وعمله طيب، وكلامه طيب، ومطعمه طيب، وشربه طيب، وملبسه طيب، ومُنْقَلَبُهُ طيب، ومُدخله طيب، ومَخرجه طيب، ومثواه طيب، فهذا هو الطيب، الذي قال تعالى في أمثاله: (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [النحل:32]، ومن الذين يقول لهم خزَنة الجنة: (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) [الزمر:73].